رسائل الاخوان المسلمين

(al-Ikhwān al-Muslimūn

Rasā'il: 1)

"Manhajunā fī al-iṣlāḥ

منهجنا في الاصلاح

نستمده من حاجة الحاضر على ضوء الماضي

Mustafa Sbā'ī

خلاصة المحاضرة التي القاها فضيلة الاستاذ مصطفى السباعي المراقب العام للاخوان المسلمين في ذكرى المولد النبوي وفيها بيان الخطوط الرئيسية الكبرى لمنهج الاخوان المسلمين في الاصلاح الداخلي والخارجي .

تصدر باشراف لجنة الطلاب الجامعيين للاخوان المسلمين

مطابع المنار بدمشق ١٣٦٧ - ١٩٤٨

رسائل الاخوان المسلمين

منهجنا في الإصلاح

نستمده من حاجة الحاضر على ضوء الماضي

خلاصة المحاضرة التي القاها فضيلة الاستاذ مصطفى السباعي المراقب العام للاخوان المسلمين في ذكرى المولد النبوي وفيها بيان الخطوط الرئيسية الكبرى بمنهج الاخوان المسلمين في الاصلاح الداخلي والخارجي .

ثمن النسخة ٢٥ ق . س

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد واخوانه من النبيين والمرسلين ، ومن حمل دعوة الحق بعدهم الى يوم الدين .

وبعد فان لجنة الطلاب الجامعيين للاخوان المسلمين قد اعتزمت اصدار سلسلة من الرسائل التي توضح فكرة الاخوان المسلمين ومنهجهم الاصلاحي واسس دعوتهم التي اخذت تحتل مكان الصدارة بين الدعوات الاصلاحية الحديثة .

وهذه الرسالة التي نقدمها الى القاريء الكريم هي اولى الرسائل التي اعتزمت اللجنة متابعة نشرها ، وهي المحاضرة التي القاها فضيلة الاستاذ مصطفى السباعي في المكتبة الوطنية في حمص بمناسبة ذكرى المولد النبوي الكريم .

وانا لنرجو ان نضع بهذه الرسالة حجر الاساس في بناء نهضة عربية صالحة تستمد من الواقع حاجاته ومن الماضى دروسه وآياته ، والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أخلد ذكرى

هذه اخلد ذكرى في تاريخ الانسانية ، ولايعرف قدر خلودها الا الذين أحاطوا باحوال العرب والعالم قبيل عصر الرسالة ، وأحاطوا بما آل اليه امر العرب والعالم بعد انتشار نورها وامتداد سلطانها ، وانه لمن خطأ الظن ان يظن احد اننا حين نحتفل بهذه الذكرى نريد بسط القول في آثارها وفضائلها ، ومدى تأثيرها في تحويل سير الحضارة وتغيير مجرى التاريخ ، ان ذلك ميدان لايتسع له خطاب في حفلة ! ولا مقالة في صحيفة ، ولا فصل في كتاب ، وكيف نجمع ازهى اسفار الانسانية وأكملها في خطاب أو مقالة ؟ ولكننا نريد من مثل هذه الاحتفالات ان نربط مابين الذكرى وحاضرنا ، فتواريخ الامم الماضية دروس حية للاجيال المتلاحقة ، ونحن لانقرأ التاريخ لنعرف مامضى فحسب ، بل لنستفيد من تجارب الآباء مايكون عظات صادقة للابناء ، وتاريخنا اولى التواريخ بان نعكف على دراسته ، وذكرياتنا اولى الذكريات بان نستفيد من دروسها ، فكيف اذا كان هذا التاريخ هو تاريخ الرجل الذي غرس انبل معاني الخير في الارض فكان نبتها اكمل ابناء الدنيا خلقاً

واخلدهم ذكراً في السماء! وكيف اذا كانت هذه الذكريات هي ذكرى الرسول الذي ابتدأت بمولده حضارة وانتهت حضارات ؟!.

واقع الذكرى يومئذ

ولد محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وواقع العرب يتلخص في اوضاع ثلاثـة :

١ – تفكك داخلي ، تتجلى مظاهره في فساد العقيدة ، وانحلال الرابطة ، وانتشار بعض المفاسد الخلقية ، وانعدام معنى الامـة والدولة ، وضعف الصلة بين الفرد والمجموع .

٢ – عالم خارجي متمدن يحيط بأطـراف الجزيرة العربـية ، يتنازع على السيطرة والنفوذ فيه دولتان قويتان تستخدم كل منهما بعض العرب القاطنين في ربوعها لتحقيق مآربها واستجلاب النصر على عدوتها ، وقد سرى في جسم هاتين الدولتين داء الهرم ففسدت فيهما الاخلاق والتاثت العقائد ، وتقطعت بين طبقاتهـا وشائج الرحمة والتعاون .

٣ – توثب نفسي عند العرب ، واستعداد فطري لتلقي الخير والاندفاع وراء القائد البصير ، فما الكرم ولا النجدة ولا الشهامة ولا الوفاء ولا الصدق ولا الصراحة ولاغير ذلك مما امتاز به العربي

في ذلك العصر الا اسلحة موفقة قاطعة لو وجدت من يحسن استعمالها لكانت نعم العون على بناء المجد ، واصلاح الدنيا ، وتهديم عروش الفساد . .

كيف عالج الرسول ذلك الواقع

هذه هي الخطوط البارزة في واقع العرب يومئذ ، حتى اذا اختار الله رسوله لحمل اعباء رسالة الاصلاح نهض بالعبء على احسن ما ينهض به رسول اجتمع له مع ذكاء العقل وسلامة التفكير وصفاء الذهن وبعد الهمة ، تأييد الوحي وتوبية السماء ومدد الالوهية ورعاية الله الذي شاء ان يختم به الوحي والتشريع ليكون في عصره الرسول القائد وليكون في تاريخ الانسانية الرسول الخالد .

ولعل فيما يلي اهم الخطط الكبرى التي وضعها الرسول لمعالجة ذلك الواقع فكان نجاحه في الاصلاح منقطع النظير كما كان اثره في التاريخ فوق كل أثر خلده في التاريخ نبي مرسل اوقائد خطير ! . .

اولا : اصلاح الوضع الداخلي

تصحيح العقيدة

أ ـ صحح العقيدة وحررها من خرافات الوثنية واباطيل

الجاهلية ، وتصحيح العقيدة في كل امة هي اول حجر يوضع في بناء نهضتها واستقرار شؤونها ، وليس اقتل للمواهب ، ولا اضر على التفكير ، ولا اخطر على النهضة من تقييد الارادة والعقل والقلب والنفس والضمير بقطعة من الحجر نحتها من يعبدها بيديه ، فاذاهو يطلب منها الرزق والمطر والحياة والسعادة ، واذا هو يستشيرها في سفره واقامته ، وعمله وتجارته ، ان هذا غاية ماتدنى اليه العقل البشري في عصور ظلامه .

لاجرم ان عطلت بهذه الوثنية مواهب العرب وتفكيرهم وحيل بينهم وبين الانطلاق في سماء الفكر والغوص على حقائق الكون ، ولا جرم أن كان تحطيم الوثنية أهم مايعنى به النبي الكريم بل أول مايعنى به ، ومن ثم ظل في مكة ثلاثة عشر عاما لاينزل عليه من القرآن الا ما كان حربا على الوثنية ودعاتها وآلهتها ، ودعوة الى التوحيد ودلائله وآثاره ، واستعان على ذلك بالعقل فهو يحفزه الى الانطلاق ، ويحثه على التفكير ويبعث فيه الشوق لمعرفة مايحيط به من عوالم لانهاية لها ، وبهذا كانت خمس آيات القرآن — كما احصى ذلك بعض العلماء — تتعلق بتوجيه النظر الى بدائع ماخلق الله في الارض والسماء من آيات باهرات لا يدركها الااولو العلم والفكر والتحرر من ربقة التقليد والجمود « واذا قيل لهم اتبعوا ماانزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا اولو كان آباؤهم

لايعقلون شيئا ولايهتدون ؟ .. وفي الارض ايات للموقنين ، وفي انفسكم افلا تبصرون ؟ ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » وهكذا حرك الاسلام العقل لينطلق مفكرا باحثا بعد ان جعلته الوثنية اسيراً خامداً .

تربية الفرد الكامل

ب — وانشأ الفرد الكامل ، فسما بروحه الى آفاق الكمال ، وهذب من طباعه واخلاقه ، فنفى عنها كل ضعيف وفاسد ، وقوى فيها كل صالح ونبيل ، وعني بصحته ونظافته فالوضوء والغسل والصلاة والصوم والحج كل ذلك عدا عما فيه من اثر بارز في تقوية الروح والاخلاق هو اقوى باعث على النظافة واصح طريق لتربية الجسم تربية رياضية صحية يبعد عنه كثيراً من العلل والامراض .

وتحريم الخمور والزنا والقمار وما اشبه هذا صيانة للجسم ان تنتابه المهلكات والترغيب في الرياضة وخصوصاً ما كان منها معروفاً في عصر الرسالة كالسباحة والرمي والفروسية والمصارعة ليست الا وسيلة لتربية جيل رياضي يستعد للقيام بواجباته على اتم وجه وانشط

حال ، وليس عبثا ان يشهد الرسول في مسجده سباق الحبشة ، ولا ان يصارع « ركانـة » ولا ان يتسابق مع عائشة ، بل هي دروس من القائد الرسول يفهم منها اتباعه ان كمال النفس لا يتم الا بكمال الجسم ، واستقامة العبادة لا ينافيها استقامة البدن ، والنشاط للعبادة لا يكمل الا بعد النشاط في الرياضة !..

وكما عني الرسول بروح الفرد وخلقه وصحته عني بتقوية الروح الاجتماعيه فيه ومحاربة القبلية والعائلية والانعزالية في نفسه ، وتلك لعمري اقتل الاخلاق الفردية لروح الجماعة وكيان الامـة ! ومهما اتصف الفرد باكمل الصفات واجملها فلن يتم كماله الا اذا ملأت الروح الاجتماعية قلبه ووجهت عمله وايقظت ضميره وكانت المسيطرة عليه في كل تصرفاته ، ولذلك كرر القرآن لفظ « الامة » في كثير من اياتـه ، وجعل المسلم يتلو في صلاتـه ولو كان منفردا في رأس جبل « اياك نعبـد ، واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم » « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » الفاظاً بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد ، ليذكر الفرد دائما انه عضو في مجتمع وفرد في امة ! وجعل له من الصلاة فرصاً يجتمع فيها باهل حيه او سوقـه خمس مرات في اليوم يؤديها مجتمعا في اقرب مسجد اليه ، ومن صلاة الجمعة فرصة يجتمع فيها باهل بلدته مرة في كل اسبوع ، ومن صلاة العيدين مرتين في كل عام ، ومن الوقوف في عرفات فرصة يجتمع

فيها باخوانه في العقيدة مرة في العمر على أقل تقدير ..

وكما غرس فيه هذه الروح الاجتماعية ايجابيا ، فقد حارب فيه الروح الانعزالية سلبيا « من لم يهتم بامر المسلمين فليس منهم » وحارب فيه الروح القبلية والعائلية « ليس منا من دعا الى عصبية » « ياايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين » ودعا الى العدالة ولو مع الد الاعداء خصومة « ولا يجرمنكم شنآن قوم على الاتعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » .

ولما كان مفتاح الكمال الفردي الذي ذكرنا بعض نواحيه هو في العلم قبل كل شيء . فلا تستقيم مع الجهل فضيلة ، ولايتم بدون العلم كمال ، جعل الاسلام العلم فريضة « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ورغب فيه من اوائل عهد الصبا الى نهاية العمر « اطلب العلم من المهد الى اللحد » وجعل مرتبة العالم فوق كل مرتبة في الدنيا « فضل العالم على الجاهل كفضل القمر على سائر النجوم » ، واعتبر شهادته فوق كل شهادة « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط » ، وحصر خشيته ومعرفة جلاله بالعلماء « انما يخشى الله من عباده العلماء » ، واعتبر التعب في طلب العلم جهادا يوصل الى الجنة « من سلك سبيلا يطلب منه علما سهل الله له طريقاً الى الجنة »

وفضل المداد الذي ينفقه العالم في تأليف الكتب وتسويد الصحف لافادة الناس على الدم الذي يريقه الشهيد في سبيل الله « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء » .

وهكذا بدأ رسول الله الاصلاح الداخلي باصلاح الفرد الذي هو الخلية الاولى في كيان المجتمع ، فصحح عقيدته ثم حلاه بالعلم والاخلاق والصحة وسمو الروح وقوة العاطفة الاجتماعية في نفسه.

ايجاد المجتمع العادل

جـ ـ ثم التفت بعد ذلك الى تنظيم المجتمع فاقامه على اسس عادلة كاملة نجمل اهمها فيما يلي :

(١) : صحح الميزان الاقتصادي وحقق العدالة الاجتماعية بين الاغنياء والفقراء ، فالمال مال الله ، والغني امين عليه ، وفيه حق للفقير والبائس والمحتاج فان بذر الغني في ماله استحق الحجر عليه ، وان منع حق الفقير فيه اخذته الدولة قهراً فان ابى اعلنت عليه الحرب ! .. وللانسان ان يتملك الا عن طريقين : الغش والظلم وهما اعظم مورد للراسمالية الظالمة ، فلا ربا ولا احتكار ولا قمار لانه ظلم ، ولا خداع ولا كذب ولا تدليس لانه غش ، والمال في ذاته لاقيمة له الا انه وسيلة لاسعاد صاحبه واسعاد المجتمع ، فاذا

فهمه صاحبه على هذا كان نعمة وخيرا « نعم المال الصالح للرجل الصالح وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » واذا لم يفهمه صاحبه الا انه غاية في ذاته يستبيح كل طريق للوصول اليه كان شهوة قاتلة وفتنة طاغية فلا خير فيه لصاحبه ولا للمجتمع « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » واذا كان المال وسيلة للخير فحسب كان على من فاته المال ان لا ييأس ولا يحزن فما فاته الخير كله وانما فاته وسيلة من وسائله ! ولديه من الوسائل الاخرى ما يجعله من اكثر الناس خيرا لنفسه وللمجتمع ولو كان فقيرا معدما « ان في كل تسبيحة صدقة ، وفي كل تهليلة صدقة ، وامر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي اماطة الاذى عن الطريق صدقة ، وفي الاصلاح بين الناس صدقة ، وفي اعانة الرجل على دابته فيحمله عليها صدقة » ، وعلى من ملأ يديه من المال ان لا يبطر ويظلم فما هو الا اداة للخير لا للشر ، وعليه ان يتصدق منه كلما وجد للتصدق سبيلا ، وهو في ذلك يقرض الله فيرده عليه ردا جميلا « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافا كثيرة ؟ » وهو في نفقته رابح « مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة

والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » فان بخل بالمال عن وجوه الخير واكتنزه لنفسه دون الامة فلينتظر خزيا في الدنيا وعذابا مقيما عند الله : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والارض والله بما تعملون خبير » « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وليس في الدولة فقير لايجد الطعام ، ومتشرد لايجد المأوى وعار لايجد اللباس ، وعاطل لايجد النفقة وعاجز لايجد المعيل ، بل كل هؤلاء في رعاية الدولة تنفق عليهم من اموال الزكاة مايحفظ لهم كرامتهم في المجتمع ويقيهم شر السؤال والعوز والمرض والجهالة فان لم تكف اموال الزكاة لتحقيق العدالة الاجتماعية نحو هؤلاء كان للدولة ان تأخذ من أموال الاغنياء بقدر ما تندفع به الحاجة ولو استغرق ذلك اموالهم كلها ! . هذا هو مجمل نظام الاسلام الذي حقق به التوازن الاقتصادي فلم تعرف المجتمعات الاسلامية لا في عصر الرسول ولا بعده في عصور الخير قسوة الغني ولا ثورة الفقير !..

(٣) : صحح العلاقة بين الشعب والدولة فليست الدولة الا

رقيبة على تصرفات الشعب تمنع منها الضار وتشجع المفيد ، وليس الحاكم الا اجيرا للشعب يسهر على راحته ويعمل على رفاهيتـــه ، وليس الرئيس الا فردا من افراد الامة جعله الله اكثرهم واجبات واعبـــاء .

يقول ابو بكر في اول خطبة له « ايها الناس اني وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتموني على حق فاعينوني ، وان رأيتموني على باطل فسددوني ، اطيعوني ما اطعت الله فيكم ، فاذا عصيت الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وعلى الشعب ان يتعاون مع حكامه وقادته في حدود القانون والدستور « واطيعوا الله واطيعـــوا الرسول واولي الامر منكم » « من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية » وهكذا لم يخل الاسلام كل فرد من افراد الامة عن المسؤلية مهما كانت وظيفته ومكانته « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »

(٣) : صحح العلاقة بين الفرد وأبناء الشعب قاطبة ، فعليه ان يتعاون معهم على الخير ، ويعاشرهم بالمعروف ، وله الحريـــة المطلقة ان يقول ويفكر ويعمل مايشاء مالم تؤد هذه الحريـة الى ضرر بنفسه او ضرر بالمجتمع فان من حق الدولة عندئذ ان تأخـذ على يده وتمنعه من اساءة معنى الحرية . يقول عليه الصلاة والسلام « ان قوما ركبوا في سفينة فاستهموا فاصاب كل واحد منهم موضعا فاخذ احدهم ينقر مكانه ، فلما انكروا عليه قال لهم هذا

مكاني افعل فيه ماشاء ! . فان اخذو على يده نجا ونجوا وان تركوه يفعل مايشاء هلك وهلكوا جميعا » ! هذا هو التحديد المعتدل لحرية الفرد ، وحرية المجتمع وصلة الدولة بهذه الحرية ، فلا دكتاتورية ! لانها تعطيل للمواهب ، وقتل للارادة والفكر ، ولا ديمقراطية مهلهلة يفعل فيها كل انسان مايريده لان ذلك فوضى وفهم لمعنى الحرية لايوجد الا في عالم الحيوان نفسه ! .

ثانياً : الاستفادة من استعداد الامة

بهذا اصلح الوضع الداخلي ولم يهمل الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه الحركة الاصلاحية نفسية الامة وتوثبها واستعدادها وشخصيتها ، بل كان مستمداً اصلاحه من عناصر الخير الدفينة في مجتمعه ولاءم بين شخصية الامة والاصلاح الذي اراده الله لها . فلم ينتقل بها طفرة بل تدرج في التشريع شيئاً بعد شيء ، ولم ينقلها من شخصيتها الى شخصية امة اخرى فذلك قتل لروح الامة ومسخ لارادتها ، وافناء لشخصيتها ، ولم يستمد قوته في الاصلاح من امة اجنبية كالفرس او الروم ، بل كان أصلاحه حركة وطنية معتمدة على تأييد الله واستعداد الامة ، وهذا هو الطريق المستقيم الذي يجعل بركة الاصلاح في الامة عائدة على الامة ذاتها لا على دولة من الدول القوية الباغية

التي تنتهز الفرص لتدس يدها في شؤون الامـة الداخليـة لتركز اقدامها وتوطد استعمارها ..

ثالثاً : تخليص الاجزاء العربية

من الاستعمار

وبعد ان هيأ الرسول من آمن به لحمل رسالة الاصلاح وجه همه لتخليص اجزاء الجزيرة العربيـة من قيود الجهـالة والاستعمار ، فارسل الى امراء الجزيرة كتباً يدعوهم فيها الى الصلاح والانضواء تحت راية الوحدة الجديدة ، ومازال بالامراء والولايات العربيـة حتى آمنت جميعها برسالته ودانت جزيرة العرب كلها لطاعته .

رابعاً : التوجه لاصلاح العالم

وحين تم له اعداد الامة العربية لفهم رسالة الاصلاح وتهيئـة نفوسها لقيادة ركب العالم التائه الحائر المضطرب ، وجهها الى القضاء على رؤساء الشر من ملوك العالم وقادته بعد ان رأى منهم تبييت السوء لحركته الاصلاحية ، وتصميمهم على الوقوف في وجه دعوته الرامية الى انقاذ العالم من شرورهم وتحكمهم وسيطرتهم .

هدف الحروب الاسلامية

وهنا لابد من التنبيه الى ان هذه الحروب التي اعقبت ايمان الجزيرة العربية برسالة الاسلام والتي ابتدأت مع الفرس والروم ، كانت ترتدي طابعين بارزين :

(الاول) طابع الدفاع فجيش اسامة الذي اعده الرسول قبيل وفاته لقتال الروم لم يكن الارد للعدوان الذي بدر منهم في معركة سابقة وجوابا على الحشد والاستعدادات التي بلغت الرسول انهم يهيئونها على حدود الشام ، وقتال الفرس لم يبدأ الا بعد ان تدخل امراء الفرس في اليمن وما جاورها في تأييد حركة المرتدين وتغذية الفتنة الداخلية في الجزيرة عقب وفاة الرسول بالسلاح والاغراء ، فلما انتهت الفتنة ولجأ المنهزمون المرتدون الى بلاد الفرس تعقبهم الجيش العربي الظافر وبذلك ابتدأت المعارك بين المسلمين والفرس .

(الثاني) ان هذه الحروب ما كانت حرب اديان ولا حرب شعوب ، وانما كانت حربا بين ملوك مستبدين يريدون ان يحولوا بين شعوبهم وبين النور والانعتاق والتحرر ، وبين امة تريد ان تحمل النور الى هذه الشعوب فكان هؤلاء الملوك هم الذين يقفون في طريقها . اما انها لم تكن حرب دين فذلك واضح من كلمة القرآن (لا اكراه في الدين) ومن اعلان القرآن قدسية الانبياء السابقين واحترام كتبهم

الصحيحة ومن اقرار المسلمين اهل البلاد المفتوحة على اديانهم وعقائدهم وكنائسهم ، وشعارهم تلك القاعدة الخالدة (لهم مالنــــا وعليهم ماعلينـــــا) .

وانــكم لتجدون في اول آيات نزلت تبيح القتال للمسلمين بيانا صريحاً ان هذا القتل لم يشرع الا لرد الاذى وتأمين حرية العقائد والابقاء على اماكن العبادة لمعتنقي الاديان كلها من مسلمين ونصارى ويهود وغيرهم وذلك في قوله تعالى (اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ، ولولا دفـع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور » . ففي هذه الآيات تصريح بان القتال شرع لدرء عدوان المشركين على المؤمنين ومنع المساجد والكنائس واماكن العبادة من ان يهدمها الملحدون .

وان رسالة المؤمنين حين ينتصرون (اقامة الصلاة) وهــذا رمز لتحقيق السمو الروحي في العالم (وايتاء الزكاء) وهذا رمز لتحقيق العدالة الاجتماعيــة في الشعوب (وامر بالمعروف) وهــــذا رمز لعمران الدنيا وتحقيق الخير للاقوام قاطبة ، (ونهي عن المنكر)

وهذا رمز لمحاربة الشر والفساد دون تحديد لمعناه بعرف خاص او زمن خاص ، هذه هي مقاصد الحروب الاسلامية حين اشتبك العرب مع الفرس والرومان .

وأما ان هذه الحروب لم تكن ضد الشعوب التي غلبت على أمرها بل ضد ملوكها الظالمين المستبدين فذلك واضح من مجرى هذه الحروب ومعاملة المسلمين للمغلوبين . فلقد كانت أول وصايا أبي بكر لجنوده (لاتغلوا ولاتغدروا ولاتقتلوا شيخاً ولاطفلا ولاامرأة ولاراهبا في صومعته) لان هؤلاء لايقاتلون فلايصح الاعتداء عليهم ، وكان خالد بن الوليد حين يمر بالفلاحين الذين لم يحاربوا يتركهم على اراضيهم ولا يمسهم بسوء وكانت عهود الصلح بينه وبين المغلوبين تتضمن حرية الشعوب في عقائدها واموالها واملاكها وما ذلك الا لان هذه الشعوب لاتريد قتالا وانما الذي يسوقها الى القتال بالسلاسل احيانا وبالقوة الاجبارية احيانا هؤلاء الملوك والقادة ، ومادامواقد جعلوا من جيوشهم ترسا يحتمون به للابقاء على حكمهم وجبروتهم ، فلا بد من قتال هذه الجيوش للوصول الى هؤلاء القادة وزحزحتهم عن قيادتهم ورفع ايديهم الباغية عن التحكم في اقدار هذه الجماهير المقيدة المغلوبة على امرها ، ودليلنا على ان الشعوب لم تكن هي التي تحارب المسلمين بل كانت مجبرة يقودها قادتها ان القتال بين الفرس والعرب انتهى بقتل رستم ، وان القتال بين الروم والعرب

انتهى بهزيمة هرقل . فلما زالا من الطريق تفتحت قلوب الشعوب للحكم الجديد وآمن منها من آمن ، ورضي منها بعدالة الحكم من رضي واطمأن الى النور الجديد تحمله هذه الفئة الحاكمة الجديدة ، ومن هنا كانت الحضارة التى لم تر الدنيا انبل من آثارها ، وكان الاصلاح الذي لم تنعم الشعوب بألذ واحلى من ثماره .

خامساً : الاستفادة مما عند الامم

ولعل من خير مانختم به البحث عن خطة الرسول في اصلاح العرب والعالم ان نشير الى الروح التجديدية التقدمية التي انطوت عليها خطة الرسول الكريم فهو لم يقف عندما في شعبه من عقائد وعادات وقفة الخاضع لها المدافع عنها ، ولم يحاربها حرب الكاره المبغض وانما ابقى منها ما كان صالحا ، وحارب ما كان ضارا ، ولم يتأخر عن الاستفادة من كل ماعند الامم الاخرى من خير اوخطة او علوم اعتقد انها صالحة ومفيدة . فلقد اشار عليه بعض الصحابة بحفر الخندق حين احاطت قريش والقبائل العربية بالمدينة تبغي القضاء عليه وعلى المؤمنين معه . وقال له من اشار بذلك اني رأيت بعض المدن تحاط بمثل هذا الخندق فلم يتردد ان وافق على حفر الخندق وحث الصحابة على البدء فيه بل عمل بنفسه مع الصحابة في

الحفر ونقل التراب والاحجار ، ولما اراد ان يرسل كتباً الى الملوك والرؤساء في عصره قيل له ان الملوك لاتقبل كتابا الا اذا كان مختوما فامر ان يتخذ له خاتم يختم به الكتب ، ولما قدمت وفود القبائل عليه بعد فتح مكة قيل له ان من عادة الملوك والرؤساء ان يتخذوا لاستقبال الوفود اجمل الثياب فأمر ان يشترى له ثياب يستقبل بها الوفود كافة .

مثل هذه الادلة التاريخية تدلنا على روح تجددية متمشية مع تطورات عصرها ، ولقد ذكر القرآن قبل ذلك في صفات المؤمنين انهم يستمعون القول فيتبعون احسنه ، وفيما روي عن الرسول قوله « الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها انى وجدها » وعلى هذا الغرار سار خلفاؤه من بعده ، فعمر يدون الدواوين ويقدر الارزاق ويتخذ من الفرس والروم كل ماوضعوه من قواعد الحكم مما لايتنافى مع الاسلام ولايجانب طبيعة العرب ، فليس غريبا ان يستولي المسلمون في سنوات معدودات على امبراطوريتين من اكبر امبراطوريات العالم يومئذ ، ويسوسوا شؤونها وينقلوا علومها وآدابها دون ان يفقدوا شخصيتهم وطابعهم مما جعلهم بعد ذلك حملة لواء العلم وهداة ركب الانسانية الجديدة .

هذه هي الذكرى

هذا مانستفيده من دراسة هذه الذكرى الخالدة وهو كما ترون

درس من اجل دروس التاريخ لاينبغي ان نقرأه خلال الحفلات والاناشيد والطبول والزمور والزينات والمهرجانات ، بل ينبغي ان نقرأه من خلال سطور التاريخ لنستفيد منه اليوم في واقعنا الحاضر اجل الذكرى وانفع العبر .

واقعنا اليوم

ولو انعمنا النظر في واقعنا اليوم لوجدناه يشبه الى حد كبير واقع العرب قبيل عصر الرسالة ، فنحن نعاني تفككا داخليا واضطرابا خارجيا ، ونعترف بان في ثنايا هذا الضعف توثبا نفسيا واستعدادا فطريا هو في ايدي المصلحين اقوى سلاح وامضاه ، فعلينا اذن :

١ - ان نستفيد من توثبنا واستعدادنا لتكون حركة الاصلاح التى نريدها منبثقة من صميم الامة وواقعها الحاضر وشخصيتها التي عرفت بها بين الامم ، لا ان نلفق ثوبا مرقعا نأخذ رقعة من هذه الدولة ، ورقعة من تلك ، وخيطا من هنا وخيطا من هناك . فاذا علينا ثوب مهلهل لاهو بالشرقي في روعته وجلاله ، ولا هو بالغربي في اناقته وجماله !

٢ - وان ننظم بنياننا الداخلي ، فنصلح العقائد ، ونهيء الفرد الكامل والمجتمع العادل .

٣ – وان نحرر اجزاء وطننا الرازحة تحت اعباء الجهـل والاستعـمار .

٤ – وان ننطلق بعد ذلك لنحمل راية الانقاذ ونخلص العالم من ويلاته ومشاكله ومن طغاته ومستبديه .

٥ – وان لانطرح الماضي ، ولا نتجاهل الواقع بل نوائم بينهما ويكون سيرنا الى الامام دائما مع نور يضيء لنا الطريق ويجنبنا عثرات الظلام . .

٦ – وان نستفيد من كل ماعند الامم استفادة البصير الناقد لا الاعمى المقلد ، لندرس كل ثقافات الامم وانظمتها ولنتخذ منها مايتفق مع العقيدة التي آمنا باستقامتها ، ومع طبيعة الامة التي نريد اصلاحها ، لننظر في كل مايعرض على انظارنا من تشاريـع الامم ، ثم لنختر اصحها تطبيقا وانبلها غاية وأبعدها فتناً ، ولكـن لنحذر ان نعجب بكل مانسمع ونرى فنفقد ملكة التمييز ! يجب ان نستفيد ولانحب ! وننقد ولا نقلد ! لنحذر من الاعجاب فانه اول خطوات الحب ، والحب اول خطوات الاستعباد !

عظة المولد

واذا كان لابدلنا من ان نستفيد من ذكرى المولد في شؤون الساعة الحاضرة فاننا نهيب بقومنا ان يتذكروا الحقائق التالية دائما :

١ – ان الصراع المحتمدم الآن بين معسكري السوفيات والانجلوسكسون صراع بين مذهبين لم يثبت احدهما حتى الان صلاحه لانقاذ العالم من ورطاته وشقائه .

٢ – وان رقعة العالم العربي وخيراته وكنوزه الدفينة تحت اطباق ثراه هي اهم مايصطرع عليه المتقاتلان لينفرد كل منهما بالسيطرة عليها والتفرد بها .

٣ – وان انحيازنا الى احدهما يقرر مصير هذه المعركة الحاسمة ، ويلحق بالآخر اشد انواع الهزائم التي منيت بها امة من الامم .

٤ – وان مصلحتنا في ترك هذا الصراع يقوى ويشتد حتى يضعف الفريقان معاً ونستفيد من ضعفهما قوة وانطلاقا .

٥ – وان الانحياز الى احد المعسكرين يكبلنا بالقيود من جديد ، ويجعل بلادنا مسرحاً لحرب عالمية ثالثة نصطلي نحن بنارها قبل ان يصطلي بها الاقوياء ، كما ان هذا الانحياز من شأنه ان يقوي ذئباً على ذئب ولصاً على لص ، فنمهد السبيل للذئب الغالب لكي يفتك بالقطيع الضعيف ..

نداء وعهد !

والآن وقد اخذنا من هذه الذكرى مايوضح لنا الطريق الذي نسلكه نرى من واجبنا ان ندعو شباب الامة ليجمعوا كلمتهم

ويوحدوا شتاتهم ، ويقودوا امتهم الى ميادين النصر قيادة بصيرة متزنة لايقتلها الجمود ، ولا ينهكها التطرف . وان يوجهوا استعداد الامة لثورة فكرية وادبية لاتبقي على الخرافات ، ولا تقبل بالتحلل ، ولا ترضى بالظلم ، ولا تطمئن الى آثار الاستعمار ..

ايها الشباب والتجار والطلاب والعمال والمثقفون ! ان فلسطين مفتاح ثورتكم الكبرى فزيدوا نارها وقوداً وغضبتها اتساعاً واجعلوها مبدء تحرركم من الظلم والظالمين والاقوياء والمستبدين .

وانت ياسيدي يارسول الله . ايها القائد الذي لم يخطيء له سهم ولا نكصت له راية ، ولا زلت به قدم ! لك منا عهد الله ان نذود عن مسراك ومهد اخيك المسيح بالدماء والرجال والاموال ، نقدم القافلة تلو القافلة ، ونريق الدماء اثر الدماء ، ونبذل المال بعد المال ، حتى ننطلق بعد تحرير فلسطين الى تحرير انفسنا ووطننا والعالم كله . هذا عهدنا اليك في ذكرى الميلاد ، وسلام الله وصلاته عليك حتى نلتقي يوم الميعاد ! ..

طالعوا

جريدتكم المفضلة

المنار

لسان حال دعوة الحق والقوة والحرية